فى البيئة المنزلية تنهض اللغة العربية

من بحث بقلم
حضرة صاحب العزة محمد احمد جاد المولى بك المفتش بوزارة المعارف
والأستاذ محمد عبد الرءوف بهنسى المدرس بمدرسة عابدين للمعلمين

المنزل هو المدرسة الأولى التى تغرس فى نفس الطفل من العادات والخلال ما يبقى أثره مدى الحياة.

وينشأ ناشىء الفتيان منا على ما كان عوده أبوه

وأثر الأم أبلغ وأعمق: فالطفل فى بدء تأتأته يحاول محاكاة والده ووالدته، وهنا يلقى على عاتق الوالدين واجب خطير، ويعهد إليهما بمهم يتطلب مجهوداً جد كبير؛ إذ يتحتم ألا يلفظا أمام طفلهما بعامية، أو بلغة أجنبية، متدرعين إلى ذلك باليقظة والحذر، والنطق باللغة الصحيحة، حتى تختلط بلحمه وتمتزج بدمه، وينشأ واللغة رضيعى لبان ثدى أم. ويكثران من محاوراته باللغة الفصيحة ويلقيان عليه كثيراً من القصص الصغيرة ويطلبان منه الفينة بعد الفينة أن يقصها عليهما، ولا يدعوها إعجابهما به إلى التجاوز له عن اللحن، بل يراجعانه، وإذا تعذر عليه التصحيح يرشدانه. ولا ريب أن واجب بقية أعضاء الأسرة لا يقل عن واجب الأبوين فى إحاطة الطفل بسياج الفصيحة كى لا يتسرب إليه شىء من العامية أو الرطانة الأعجمية؛ ولهذا كان عرب الحواضر يرسلون أطفالهم إلى البادية، معتقدين أن ذلك أشحذ لأذهانهم، وأقوم لألسنتهم وأوضح لبيانهم.

وقد اقتضت حكمة الحكيم الخبير أن تجرى تلك السنة، وتتبع هذه

العادة مع نبينا عليه أفضل الصلاة والسلام : فعهد به إلى حليمة السعدية فارتضع أفاويق البلاغة من بنى سعد ، ثم هو من قريش وشب فيها ، ولغتها على مانعلم من السعة والرقة ، والجزالة وحسن اللهجة . وظهر أثر ذلك كله فى بلاغته صلى الله عليه وآله وسلم ؛ فقد كان صلى الله عليه وسلم كما قال القاضى عياض ، : « بالمحل الأفضل ، والموضع الذى لا يجهل : سلامة طبع ، وبراعة منزع ، وإيجاز مقطع ، وفصاحة لفظ وجزالة قول ، وصحة معان ، وقلة تكلف ، أوتى جوامع الكلم ، وخص ببدائع الحكم ، وعلم ألسنة العرب ، يخاطب كل أمة منها بلسانها ، ويحاورها بلغتها ، ويباريها فى منزع بلاغتها .

ولقد أبدى سيدنا أبو بكر إعجابه ببلاغته إذ قال له كما رواه أهل الأدب : « ما رأيت أفصح منك » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وما يمنعنى وأنا من قريش وأرضعت من بنى سعد » وكان يقول لأصحابه : « أنا أعربكم ، أنا قرشى واسترضعت من بنى سعد » ثم جمّله الله فأحسن تأديبه فكان أفصح الناس لسانا وأوضحهم بيانا ؛ روى عن بشار بن برد أنه قال : نشأت فى حجور ثمانين شيخاً من بنى عقيل ، وجلست إلى نسائهم فنساؤهم أفصح منهم . وهذا أكبر مؤيد لما ذهبنا إليه من عظم تأثير البيئة المنزلية فى تقويم اللسان ، وشحذ الاذهان . فإذا ترعرع الطفل فى بيئة سليمه التفكير ، حسنة التعبير ، كان أقوم قيلا ، وأوضح فى البيان سبيلا ، وإلا فاللكنة تعقد لسانه والعجمة تبهم بيانه .

هذا وأن القلب ليكاد ينفطر ، وماء الشئون لا يفتأ ينهمر حينما يذكر المرء ما يعمد إليه بعض أغنيائنا ، وينزع إليه الكثير من عظمائنا من إلقاء اطفالهم بين يدى مربيات أجنبيات يرضعنهم مع اللبن الرطانة الأعجمية ، ويعودنهم العادات الاجنبية التى تتنافر مع آدابنا القومية ، ولا تتلاءم

مع أخلاقنا الدينية فينشأ الناشيء منسلخاً عن قومه ووطنه فى عاداته وأخلاقه وشعوره وإحساسه ، لا يكاد يبين إذا حاول النطق بالعربية ، بل يتلعثم لسانه ، وتختل عباراته ، وتدمى القلوب لهجته . ولقد سمعنا طفلا يخاطب ظئره الأجنبية بالعربيـة ، ومع سماعها إياه وفهمها ما يرمى إليه لم تعره اهتماما ولم تباله بل ازدرته وأعرضت عنـه ، فاضطر المسكين أن يكلمها بلغتهـــا ، مذعنا لاصرارها ، خاضعاً لإعناتها واستكبارها فهشت له ولبت طلبه .

فهذه المربيـة وأمثالها ، وهن كثيرات فى تلك البيئات ، يغرسن فى نفس الطفل احتقار لغته وقوميته فيشب مزدريا لهما بل نائيا عنهما .

وقل مثل هذا أو أشد عمن يرمى به إلى المدارس الأجنبية ، فان عاقبته لا تقل عن ذلك إن لم تكن أدهى وأمرّ . يعمد هؤلاء العظماء إلى تربيـة ابنائهم على هذا النمط المعيب مغتبطين بذلك أيمـا اغتباط ، معتقدين أنهم ربوا أبناءهم تربية عالية ، وأعدوهم إعداداً حسناً ولا يدرون أنهم بعملهم هذا يصوبون سهاما مسمومة إلى نحور لغتهم ووطنهم ودينهم فإن هؤلاء الأبناء . مع شديد الاسف هم رجال المستقبل ، وأولياء أمور البلاد غدا ، فهل يرجى منهم نفع لبـلادهم ، وهم لا يشعرون بشعورها ولا يحترمون عادها ، ولا يتخلقون بأخلاقها ، أو يتأدبون بآدابها ؟ وهل ينتظر منهم رفع لشأن لغتهم — التى هى صلة الوطنية ، وترجمان الأمانى القوميـة ؟ هل ينتظر منهم هـذا وهم يجهلون اللغة ولا تكاد تسلم لهم عبارة من لحن شائن ، أو عامية معيبة ، أو رطانة مزرية ؟ وأن فى مصر لأسراً مصرية تحرم على نفسها ، وتأبى الاباء كله أن تتكلم فى منزلها إلا باللغة الفرنسية ذهابا إلى أن فى ذلك الرقى العظيم ، واعداد نشئهم لهذا الرقى ؛ حتى أن الزائر لهذه الأسرة وأمثالها إن كان فرنسيا لا يشعر بأنه بعيد من مألوفه لغة وعادة .

ولكن الفتى العربى فيها غريب الوجه واليد واللسان
ملاعب جنة لو سار فيها سليمان لسار بترجمان

فهل يتوقع أن يوجد عند هذه الأسر من الآمال والأمانى مثل ماعند بنى وطنهم ؟ وهل يمكن أن يخدم أبناؤها بلادهم وهم على هذه الحالة الشنيعة من الانسلاخ ؟ كلا وألف مرة كلا ! ! . هذا مبلغ تأثير التربية المنزلية فى اللغة التى هى عروة الدين ورابطة الوطنية ، وعماد القومية . ومن ذلك ندرك خطر الواجب المقدس والمسئولية العظمى الملقاة على عاتق الوالدين ، ونعلم علم اليقين أن تعليم الأم أمر لا مفر منه ولا محيص عنه . لا جدال فى وجوبه ، ولا نزاع فى أن حاجتنا إليه حاجة إلى الحياة الحقة ؛ فإن الأم الصالحة تعرف الواجب لصغيرها ، وتسير فى تربيته وإعداده لوطنه على بينة من أمرها فلا تخبط فى ذلك خبط عشواء ، بل ترقى به على نور العلم إلى ذروة العلاء . ولقد صدق من قال :

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعبا طيب الاعراق

غير أن ما يمزق الفؤاد كمداً ، ويلهب نار الأسف بين حنايا الضلوع — اننا لا نسلك فى تعليم المرأة السبيل التى تنتهى إلى الغاية المنشودة — من أعداد امرأة صالحة للاضطلاع بمهم تدبير المنزل وسياسته ، وحسن القيام بواجب تربية الطفل تربية تهيئه للنفع العام . بل نسلك فى تعليمها سبيلا شائكة معوجة تنتهى إلى هوة عميقة ، وطامة خلقية كبرى .

وإلا فقل لى بربك : لماذا يكون تعليم البنات والبنين على وتيرة واحدة نظاما ونهجا واختباراً ؟ أنتوقع وقتاً وحالا تستحيل النساء فيه رجالا ، ونكون حينئذ قد أعددنا العدة وأخذنا الأهبة لقيامها بعملها الجديد ؟ أم نبغى ، لقلة عدد المتعلمين ، أن نعد الموظفات والمدرهات والطائرات والقاضيات والمستشارات والوزيرات ؟ مع أن عندنا مع ارتفاع نسبة

الأمية ارتفاعا هائلا ، عشرات الآلاف من البُهَل المتعلمين الذين يتسكعون فى الطرقات وتغص بهم المقاهى ؟

ياقوم ؛ ليست هذه سبيل تعليم المرأة تعليما صالحاً ، فان كنتم تريدون أما لها من قوة تعليمها وصلاحيته ما يمكنها من القيام بواجب تربية أبنائها ، وحسن إدارة منزلها وتدبيره ، فبادروا إلى فصل منهاج تعليم البنات عن منهاج تعليم البنين ، فان لكل وجهة هو موليها ، وقد أعد الله المرأة لعمل غير عمل الرجل ، وكوّنها تكويناً يجعلها أقدر على أداء مهمها منه ، وفضّلها عليه فى القيام بهذا المهم ، كما كون الرجل تكويناً يؤهله لأداء واجبه الخاص به فى الحياة ، وفضّله على المرأة فى ذلك . روى أن أم سلمة رضى الله عنها إحدى زوجات النبى صلى الله عليه وسلم : رأت الرجال قادمين من الجهاد فى سبيل الله فتمنت أن لو كانت رجلا جاهدت ونالت أجر المجاهدين ، وذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأنها بأنوثتها حُرِمت ذلك الأجر ، كما حرمت نصف الميراث ، فنزل قوله تعالى : « ولا تتمنوا مافضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن واسئلوا الله من فضله إن الله كان بكل شىء عليما »

فبين الله تعالى فى هذه الآية الكريمة أن لكل من الرجل والمرأة سبيلا فى الحياة لايسلكه سواه ، وعملا لايقوم به غيره ، وأنه لا يجوز لأحدهما أن يتطلع إلى ماخص به الآخر . فهذه هى الشرعة الواضحة ، وذلك هو المنهاج القويم فيجب ألا يتجاوز منهاج تعليم المرأة الغاية من إعدادها لما خلقت له بأن تعلم مايأتى : —

(١) لغة البلاد : تجيدها قراءة وكتابة ومحادثة .

(٢) دينها : تتفقه فيه تفقها يجعلها على بينة من ربها ، وعلى بصيرة من محاسن الخلال ومكارم الأخلاق .

(٣) شئون المنزل : تتعلم كيف تديره إدارة حكيمة وتدبره تدبيراً رشيداً ويدرس لها من العلوم مايؤهلها لذلك . كالحساب مثلا .

(٤) تربية الأولاد : تعلم كيف تعنى بشأن أولادها ، وتحسن القيام على تقويمهم وتحافظ على صحتهم .

(٥) تربية قوة الحكم والاستنباط والعاطفة الوطنية : تعلم من التاريخ والجغرافيا والأشياء والتربية الوطنية ما يربى عندها ملكة الحكم الصحيح والاستنباط الحق والعاطفة الوطنية .

هذا مجمل ما ينصح للبنت أن تتعلم ، وما يلزمها فى القيام بواجبها فى الحياة على أتم وجه وأكمل صورة